



الظاهر بيبرس (فاتح عكا)



المجد

رسم: ماهر عبد القادر

تأليف: د/ علي راشد

جميع حقوق الطبع محفوظة

برقم إيداع 2013/7080

المجد للنشر والتوزيع 0106372799

هُوَ "رُكْنُ الدِّينِ بَيْبَرْسُ الْبَنْدَقْدَارِيُّ"، الَّذِي لُقِّبَ بِـ "سُلْطَانِ مِصْرَ
وَالشَّامِ"، وَرَابِعُ سَلَاطِينَ الدَّوْلَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ وَمُؤَسِّسُهَا الْحَقِيقِيُّ، بَدَأَ
مَمْلُوكًا يَبَاعُ فِي أَسْوَاقِ بَغْدَادَ وَالشَّامِ، وَانْتَهَى بِهِ الْأَمْرُ كَأَحَدِ أَعْظَمِ
السَّلَاطِينَ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْوَسِيطِ، لُقِّبَهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ
فِي دِمَشْقَ بِـ "رُكْنِ الدِّينِ"، وَبَعْدَ وَصُولِهِ لِلْحُكْمِ لُقِّبَ نَفْسَهُ بِـ "الْمَلِكِ
الظَّاهِرِ".



وُلِدَ بِيَبْرُسُ عَامَ ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م مِنْ أَصْلِ تُرْكِيٍّ مِنْ بِلَادِ "الْقَبْجَاقِ"
 (كَازَاخْسْتَانِ حَالِيَا) وَقَعَ فِي أَسْرِ الْمَغُولِ وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ
 عُمُرِهِ، وَتَمَّ بَيْعُهُ فِي أَسْوَاقِ الرَّقِيقِ بِدِمَشْقَ فَاشْتَرَاهُ الْأَمِيرُ "عَلَاءُ
 الدِّينِ الْبَنْدَقْدَارِيُّ"، وَلِذَا سُمِّيَ بِيَبْرُسُ بِـ "الْبَنْدَقْدَارِيِّ".



ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى خِدْمَةِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ "نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ" سُلْطَانَ مِصْرَ،
الَّذِي أَعْتَقَهُ وَجَعَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ مَمَالِيكِهِ، ثُمَّ وَلَّاهُ رِئَاسَةَ إِحْدَى فِرَقِ
حَرَسِهِ الْخَاصِّ، وَرَقَّاهُ قَائِدًا لِفِرْقَةِ الْمَمَالِيكِ لِمَا رَأَى مِنْ شَجَاعَتِهِ
وَفُرُوسِيَّتِهِ وَإِقْدَامِهِ وَشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ.



بَرَزَ بَيْبَرْسُ بِشَكْلٍ كَبِيرٍ عِنْدَمَا قَادَ جَيْشَ الْمَمَالِيكِ فِي مَعْرَكَةِ
الْمَنْصُورَةِ ضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ فِي رَمَضَانَ مِنْ عَامِ ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م، فَقَدْ
شَنَّ الْفَرَنْجَةُ الصَّلِيبِيُّونَ هُجُومًا مُبَاغِتًا عَلَى الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ مِمَّا
تَسَبَّبَ بِمَقْتَلِ قَائِدِ الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ "فَخْرَ الدِّينِ بْنِ الشَّيْخِ"، فَارْتَبَكَ
الْجَيْشُ، وَكَادَ يَنْهَزِمُ، إِلَّا أَنَّ الْقَائِدَ الْجَدِيدَ "بَيْبَرْسَ" وَضَعَ خُطَّةً
عَسْكَرِيَّةً مُحْكَمَةً أَدَّتْ إِلَى هَزِيمَةِ الْفَرَنْجِ فِي مَعْرَكَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَتَمَّ
أَسْرُ قَائِدِهِمُ الْمَلِكِ الْفَرَنْسِيِّ "لُويْسَ التَّاسِعِ" وَحَبْسِهِ فِي دَارِ "ابْنِ
لُقْمَانَ".



وَفِي أَثْنَاءِ مَعْرَكَةِ الْمَنْصُورَةِ مَاتَ السُّلْطَانُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ، وَاسْتَدْعَتْ
زَوْجَتُهُ "شَجْرُ الدَّرُّ" ابْنَهُ "تُورَانَ شَاه" مِنَ الشَّامِ لِيَكُونَ السُّلْطَانُ
بَدَلًا مِنْ أَبِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ تَسَبَّبَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُضَايِقَاتِ لِمَنْ حَوْلَهُ، فَتَمَّ
قَتْلُهُ، وَأَصْبَحَتْ "شَجْرُ الدَّرُّ" حَاكِمَةً مِصْرَ.



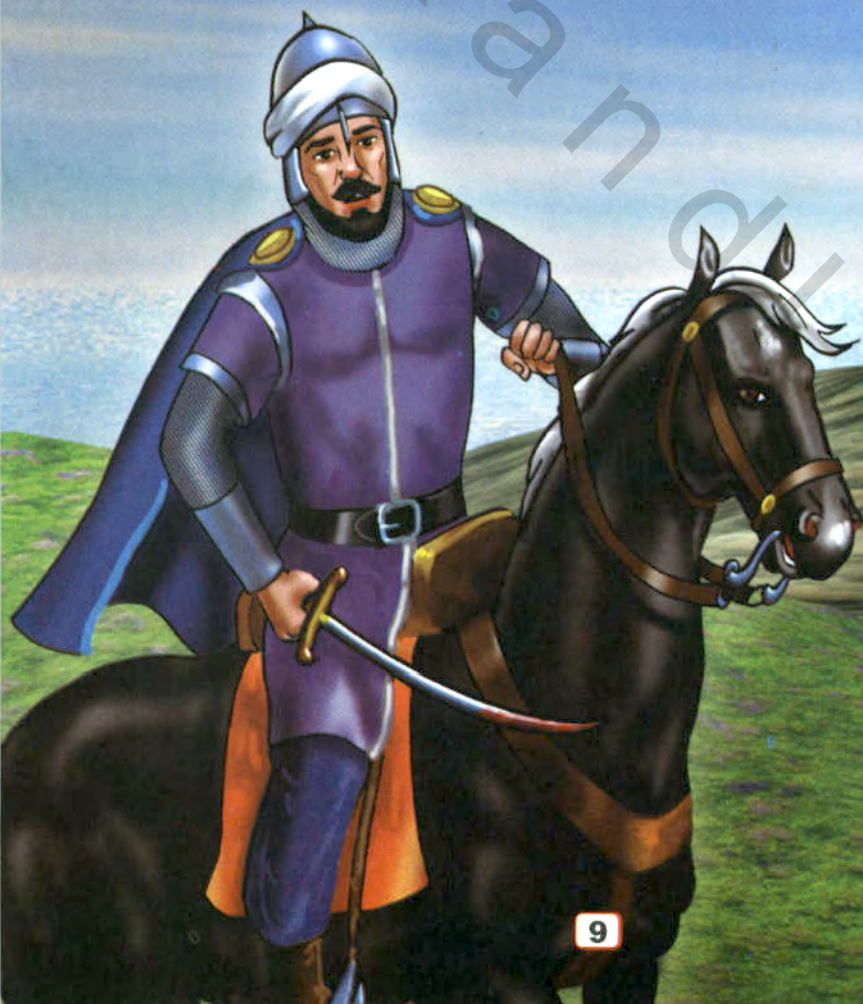
وَتَزَوَّجَتْ مِنَ السُّلْطَانِ "عَزُّ الدِّينِ أَيْبَكُ" الَّذِي قَرَّرَ التَّخْلُصَ
مِنَ الْأَمِيرِ "أَقْطَايُ" وَمَمَالِيكِهِ - وَمِنْ بَيْنِهِمْ بَيْبَرْسُ - وَتَمَّ ذَلِكَ
بِمُسَاعَدَةِ الْأَمِيرِ "قُطْرُ"، وَبَعْدَ مَقْتَلِ "أَقْطَايُ" هَرَبَ "بَيْبَرْسُ" وَمَنْ
مَعَهُ مِنَ الْمَمَالِكِ إِلَى الشَّامِ.



وَقُتِلَ السُّلْطَانُ "عَزُّ الدِّينِ أَيُّبُكُ" عَلَى يَدِ "شَجَر الدَّرِّ" الَّتِي قُتِلَتْ
هِيَ أَيْضًا عَلَى يَدِ الزَّوْجَةِ الْأُولَى لِلْسُّلْطَانِ "أَيُّبُكُ"، وَأَصْبَحَ "قُطْزُ"
الْحَاكِمَ الْفَعْلَى بِمِصْرَ، وَجَاءَهُ رُسُلُ التَّتَارِ وَقَانِدَهُمْ "هُولَاكُو"
لِتَسْتَسْلِمَ مِصْرُ، وَالْمِصْرِيُّونَ، فَقَتَلَ قُطْزُ رُسُلَ هُولَاكُو، وَأَعْلَنَ الْحَرْبَ
عَلَى التَّتَارِ.



فَأَرْسَلَ "بَيْبَرْسُ" وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَمَالِكِ يَعْتَذِرُونَ لِلْأَمِيرِ "قُطْزُ"، فَعَضًا عَنْهُمْ وَحَارَبَ بَيْبَرْسُ بِجَانِبِ قُطْزَ وَانْتَصَرُوا عَلَى التَّتَارِ فِي مَعْرَكَةٍ عَيْنَ جَالُوتَ، وَفِي طَرِيقِ عَوْدَةِ الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ مُنْتَصِرًا إِلَى مِصْرَ، قَتَلَ "بَيْبَرْسُ" السُّلْطَانَ "قُطْزُ" خَوْفًا مِنْ انتِقَامِهِ مِنْهُمْ.
اتَّفَقَ أُمَرَاءُ الْمَمَالِكِ عَلَى مُبَايَعَةِ "بَيْبَرْسُ" قَائِدًا لَهُمْ، وَلَقَّبُوهُ بِـ
"الْمَلِكِ الظَّاهِرِ" وَأَجْلَسُوهُ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ.



اسْتَطَاعَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْسُ بِحَمَلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ الْقَضَاءَ عَلَى ثَوْرَةِ
الْأَمِيرِ "عَلَمِ الدِّينِ سَنَجَرٍ" أَمِيرِ حَلَبَ وَالَّذِي نَادَى بِنَفْسِهِ سُلْطَانًا
عَلَى دِمَشْقَ، وَتَمَّتْ إِعَادَةُ دِمَشْقَ تَابِعَةً إِلَى مِصْرَ.
كَمَا اسْتَطَاعَ الْقَضَاءُ عَلَى ثَوْرَةِ "الْكُورَانِيِّ" دَاخِلَ مِصْرَ، وَهُوَ فَارِسِيٌّ
الْأَصْلُ كَانَ يَهْدَفُ إِلَى قَلْبِ نِظَامِ الْحُكْمِ، كَمَا اسْتَطَاعَ "بَيْبَرْسُ"
إِحْيَاءَ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْقَاهِرَةِ، اسْتَقْدَمَ السُّلْطَانُ
"أَبَا الْعَبَّاسِ" وَلَقَّبَ بِالْخَلِيفَةِ "الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ"، وَالَّذِي قُتِلَ فِيمَا
بَعْدَ وَهُوَ يُحَاوِلُ بِجَيْشِهِ التَّغْلِبَ عَلَى جَيْشِ الْمَغُولِ.



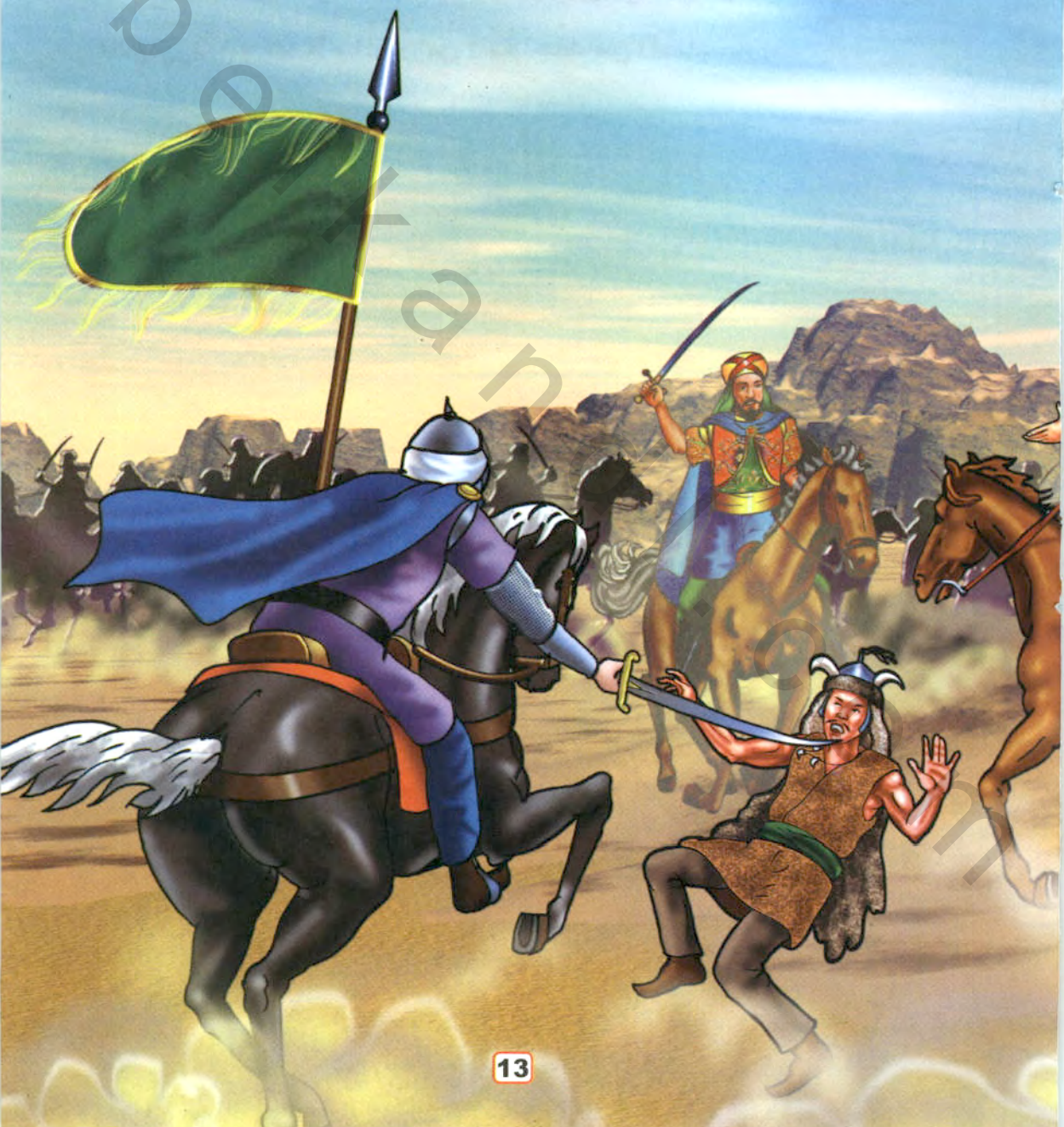
وَشَهِدَ عَصْرُ "بَيْبَرْسَ" نَهْضَةً مَعْمَارِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً كَبِيرَةً، وَذَلِكَ
بِإِنْشَاءِ الْمَدَارِسِ بِمِصْرَ وَدِمَشْقَ وَاهْتَمَّ بِتَجْدِيدِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَأَنْشَأَ
عَامَ ٦٦٥ هـ، ١٢٦٨ م جَامِعًا عُرِفَ بِاسْمِهِ إِلَى الْيَوْمِ فِي الْقَاهِرَةِ وَهُوَ
جَامِعُ "الظَّاهِرِ بَيْبَرْسَ" فِي حَيِّ الظَّاهِرِ.
وَقَدْ اسْتَطَاعَ "بَيْبَرْسَ" أَنْ يُقِيمَ تحَالَفَاتٍ عَرَبِيَّةً وَأُورُوبِيَّةً عَدِيدَةً،
لَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَعِدُّ لِلْجِهَادِ ضِدَّ الْمَغُولِ، وَضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ.



أَمَّا الْمَغُولُ فَقَدْ كُسِرَتْ شَوْكُتُهُمْ، مِمَّا دَعَا "أَبْنَا" ابْنَ هُولَاكُو إِلَى
طَلَبِ الصُّلْحِ، وَلَكِنْ بِيَبْرَسَ رَفُضَ، وَحَارَبَهُمْ فِي مَنَاطِقَ "السَّاجُورِ"،
وَمَنَاطِقَ "عَيْنِ تَابٍ"، وَدَمَّرَهُمْ، أَمَّا فِي مَوْقِعَةِ "أَبْلَسْتِينَ" عَامَ ٦٧٥ هـ..



فَقَدْ أَلْحَقَ بِالْمَغُولِ هَزِيمَةً سَاحِقَةً هُمْ وَحُلَفَائِهِمْ مِنَ السَّلَاجِقَةِ وَأَمَّا
الصَّلِيبِيُّونَ، فَقَدْ قَرَّرَ "بَيْبَرْسُ" فَتْحَ "عَكَا" لِأَهْمِيَّتِهَا الْإِسْتِرَاطِيَّةِ
الْكَبِيرَةِ فِي مَسَارِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ مُنْذُ أَنْ بَدَأَتْ.



وَاتَّبَعَ "بِيبَرُسُ" الْحِيلَةَ وَالِدَهُاءَ فِي دُخُولِ "عَكَا". وَذَلِكَ لَعْدَةٌ
أَسْبَابُ مِنْهَا: أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ تَطُولَ الْحَرْبُ، وَثَانِيًا لِأَنَّ فَتْحَ
"عَكَا" يَرْفَعُ الرُّوحَ الْمُغْنَوِيَّةَ لَجُنُودِهِ، وَيَبِثُّ الذُّعْرَ فِي الْمُعْسَكَرِ
الصَّلِيبِيِّ، وَأَيْضًا فِي الْمُعْسَكَرِ الْمَغُولِيِّ. وَاعْتَمَدَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ عَلَى
خَدَاعِ حُرَّاسِ مَدِينَةِ "عَكَا" وَذَلِكَ بِأَنْ ارْتَدَى الْجُنُودُ الْمُهَاجِمُونَ
مَلَابِسَ تَبَدُّوْا لَهُوْلَاءِ الْحُرَّاسِ أَنَّهُمْ جُنْدٌ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ.



وَمَا أَنْ اقْتَرَبَ جُنُودُ "بَيْبَرْسَ" مِنْ أَسْوَارِ "عَكَا" حَتَّى بَدَأُوا بِهُجُومِ
 اِنْدِفَاعِي كَبِيرٍ، وَاسْتُخْدِمَ الْمُنْجَنِّيقُ بِكَثْرَةٍ لِإِشَاعَةِ جَوٍّ مِنَ الْخَوْفِ
 وَالذُّعْرِ فِي قُلُوبِ الصَّلِيبِيِّينَ دَاخِلَ "عَكَا". وَتَمَّ فَتْحُ أَبْوَابِ الْقَلْعَةِ
 الْحَصِينَةِ، وَأَبْلَى جُنُودُ "بَيْبَرْسَ" بِلَاءً حَسَنًا، وَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَقْتُلُوا
 الْكَثِيرَ مِنْ جُنُودِ وَفُرْسَانَ الْحِصْنِ، وَأَسْرَعَ الْكَثِيرُ مِنْ أَمْرَاءِ الصَّلِيبِيِّينَ
 إِلَى "بَيْبَرْسَ" يَطْلُبُونَ الصُّلْحَ، فَوَافَقَ عَلَى الصُّلْحِ مَعَ بَعْضِ الْإِمَارَاتِ،
 وَرَفَضَهُ مَعَ بَعْضِ الْإِمَارَاتِ الْأُخْرَى، وَعَادَ "بَيْبَرْسَ" إِلَى مِصْرَ مُحَقِّقًا
 انْتِصَارَاتٍ كَبِيرَةً عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ.



وَأَقَامَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ "بَيْبَرْسُ" عِلَاقَاتٍ مَعَ كُلِّ مَنْ بِلَادِ النُّوبَةِ،
وَالْحِجَازِ، وَتُونُسَ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْبِلَادِ وَاهْتَمَّ "بَيْبَرْسُ" بِالْعُلُومِ
وَالدِّينِ لِإِيْمَانِهِ بِأَهْمِيَّةِ الْاعْتِمَادِ عَلَى الْعِلْمِ بِاعْتِبَارِهِ السَّبِيلَ
الْوَحِيدَ لِلرَّقْيِ وَالتَّقْدِمِ، كَمَا اهْتَمَّ بِالزَّرَاعَةِ، وَأَيْضًا بِالصَّنَاعَةِ
مِثْلَ صِنَاعَةِ: السِّلَاحِ، وَالزُّجَاجِ، وَالْخَزْفِ، وَالنَّسِيجِ وَكَذَلِكَ اهْتَمَّ
بِالْمَرْأَةِ، وَأَمَرَ الْحُكَّامَ بِالاهْتِمَامِ بِزَوْجَاتِهِمْ، فَانْتَقَلَ هَذَا الْاهْتِمَامُ
إِلَى الشَّعْبِ، كَمَا اهْتَمَّ بِالْبَرِيدِ وَخَاصَّةً الْبَرِيدِ الْجَوِيِّ عَنْ طَرِيقِ
الْحَمَامِ الزَّاجِلِ.

وَتُوُفِيَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ "بَيْبَرْسُ" وَهُوَ فِي دِمَشْقَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ٢٧ مِنْ
مُحَرَّمٍ مِنْ عَامِ ٦٧٦ هـ الْمُوَافِقِ، مَآيُو عَامِ ١٢٧٧ م وَدُفِنَ فِي الْمَكْتَبَةِ
الظَّاهِرِيَّةِ فِي دِمَشْقَ بَعْدَ حُكْمٍ دَامَ ١٧ سَنَةً، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ ٥٤
سَنَةً، وَتَوَلَّى الْحُكْمَ مِنْ بَعْدِهِ أَكْبَرُ أَبْنَائِهِ "نَاصِرُ الدِّينِ"، إِلَّا أَنَّ أَوْلَادَ
"بَيْبَرْسِ" لَمْ يَدُمْ لَهُمُ الْحُكْمُ طَوِيلًا.

